دور كليات الشريعة

في بناء الشخصية الإنسانية العلمية

مقدم إلى مؤتمر كلية الشريعة الخامس المحكم

(دور كليات الشريعة في تحقيق الأمن المجتمعي – التطرف والإرهاب والعنف نموذجا)

المنعقد في جامعة مؤتة، في

١٧-١٩/ ٧/ ٢٠١٧م

إعداد:

أ.د. محمد سعيد حوا

مدخل

من أهداف كليات الشريعة الكبرى بناء الشخصية الإيمانية الإنسانية العلمية المتكاملة؛ ليكون خريج كلية الشريعة فاعلاً إيجابياً، مواكباً لتطورات العصر، ومقتضيات الحياة وما فيها من مستجدات، قادراً على مواجهة التحديات الفكرية والحياتية والتعامل معها.

من تحديات العصر:

ويتأكد ذلك في عصرنا إذ نواجه داء التطرف والإرهاب من جهة، كما نواجه ألواناً من الإلحاد والإعراض عن منهج الله، وإذ نواجه سلوكيات لدى بعض لا تنسجم مع هدي الإسلام، إضافة لانتشار الكثير من الشبهات في حق الإسلام عامة، والكتاب والسنة على وجه الخصوص.

منشأ التحديات والإشكالات:

وبعض هذه الإشكالات منشؤها من طبيعة الصراع بين الحق والباطل، فلا يترك الخصم فرصة إلا ويحاولون النيل من ديننا، وبعضها منشؤه سوء الفهم من بعض أبناء المسلمين، أو سوء التصور أو سوء التصرف، وهذا وذاك بعضه ذاتي، وكثير منه بتأثير وتخطيط خارجي، فسمة عصرنا صراع الأفكار والمعتقدات والرؤى، وانعكس ذلك كله على السياسات والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والإنسانية بعامة.

النتائج المرة:

ونتيجة لعدم الارتقاء إلى عظمة الإسلام وحسن الفهم من بعضهم؛ فقد عانت ومازالت أمتنا من الويلات والدمار والقتل، ووجد الآخر المخالف من خلال تصرفات بعض المسلمين أو بعض أفكارهم مدخلاً للتشكيك أو تسويغ الاعتداء؛ لتصبح الأمة كلها محل الاتهام.

واجب كليات الشريعة ودورها الكبير:

أمـام هـذا الوضـع المـأزوم فكـرياً وسياسـياً، واجتماعيـاً نبحـث عـن دور كليـات الشـريعة في التصـحيح والتنوير والإنقاذ والتسديد للفكر والعمل.

إن المحـور الأهـم في دور كليـات الشـريعة إنمـا يكمـن في بنـاء الإنسـان نفسـه، فـإن أي بحـث في أي مشكلة لابد أن يبدأ من الإنسان، وليس من أي شيء آخر.

كيف يكون بناء الإنسان؟

إن عمليـة بنـاء الإنسـان بنـاء صـحيحاً سـليماً تبـدأ مـن وضـع التصـور عـن الإنسـان الـذي نريـد، ثم كيف يكون ذلك.

إننـا إذا رجعنـا إلى كتـاب الله سـنجد الإنسـان يـذكر في سـياقات سـلبية إلا إذا تحقـق بالإيمـان والعمـل الصالح

﴿ إِنَّ الإِنسَـانَ خُلِـقَ هَلُوعـاً، إِذَا مَسَّـهُ الشَّـرُّ جَزُوعـاً، وَإِذَا مَسَّـهُ الخَـيْرُ مَنُوعـاً ﴾ [المعـارج:١٩-٢١].

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٤]

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٧٧]

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦]

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ [القيامة: ٥]

إذن إنما يتحق بناء الإنسان من حلال العناية بمحاور ثلاثة:

القلب؛ بتحقيق الإيمان. والعقل؛ بتحقيق العلم. والسلوك العملي؛ بتحقيق تزكية النفس.

وللحـديث عـن دور كليـات الشـريعة في ذلـك كلـه، وعلـى وجـه الخصـوص مـا يتصـل ببنـاء الشخصـية الإنسانية الكاملة، فإنه يمكن طرح الموضوع من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: منهجية الإصلاح الشامل، ودور كليات الشريعة.

المطلب الثاني: دور كليات الشريعة في بناء الإيمان، وتزكية النفس وصلاح القلب.

المطلب الثالث: دور كليات الشريعة في منهجية التفكير السليم.

المطلب الأول: منهجية الإصلاح الشامل، ودور كليات الشريعة.

منهجية الإصلاح والتغيير الشامل:

ما زالت قضية إصلاح الإنسان والارتقاء به والتحقق بالصفاء والنقاء، ومن ثم النجاة عند الله والفوز بالآخرة والرضوان، ما زال هذا الأمر الشغل الشاغل لرجال التربية والإصلاح المسلمين على قدم الأنبياء.

فكم نحن بحاجة أن نزرع في قلوبنا، ومن ثم في منهجية حياتنا وسلوكنا جملة من القيم والسلوكيات.

تَرى شعوباً تلتزم بدقة النظام في السير والعمل والموعد، لا تكاد تجد من يخل به، عندما أفكر في هذا الأمر أقول: أليس هذا من صميم ديننا، ألا ترى أننا لا يمكن أن نؤدي الصلاة قبل وقتها ولو بدقيقة، ألا ترى أننا نمسك للصوم في لحظة محددة، ونفطر في لحظة واحدة، لا نتقدم ولا نتأخر في ذلك.

ترى شعوباً تلتزم في نظام سيرها أن لا يلتفتَ أحدٌ إلى أحد، فلا يمد أحد نظره إلى أحد، ما أروع ذلك، ما أروع أن يقف اثنان على إشارة المرور فلا يتطاول أحد بنظره إلى من بجانبه، ويسيرون في الطريق فلا يقتحم أحد على أحد خط سيره، ولا يزعجه بضوضاء مزمار سيارته.

فلئن كانت شعوب قد تربت خلال حياتها على مثل هذه القضايا؛ فإن الإسلام هو أول من جاء ليُرَبّينا على ذلك، ألا ترى إلى قوله ﷺ: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1].

ألا ترى إلى أوامر القرآن والسنة بوجوب غض البصر وغض الصوت: ﴿واقصد في مشيك، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ [لقمان: ١٩].

ترى شعوباً قد دَأَبَتْ على العمل والجد والنشاط في العمل، مع الإتقان، والحرص على كل لحظة من أوقاتها، والحرص على أعلى درجات الجودة في الصناعة وغيرها.

من أولى بذلك منا، ونحن من قيل لنا: ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملَكم ورسولُه والمؤمنون ﴾ [التوبة: ١٠٥].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ رقم ١٦٠٤ وأحمد في المسند رقم ١٧٣٧ والترمذي رقم ٢٣١٧ وابن حبان في صحيحه رقم ٢٢٩ .

ونحن من قيل لنا: ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [الزمر: ١٨]، وخاطبنا رسول الله ﷺ بقوله: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[٢]، ونحن من حُدِّثْنا عن حفظ الأمانة في كل شيء، في نصوص قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أركان الإصلاح[٣]:

واعتقادي أننا أمام أربعة أركان لا بد منها للتحقق بهذا الإصلاح والتغيير وهي:

١. الإرادة والعزيمة.

٢. القدوة والقيادة الصالحة.

٣. المنهج السليم والثقافة الصحيحة.

٤. صلاح القلب.

ويمكن القول أننا أمام ركيزتين تخص الإنسان من حيث هو : صلاح القلب، وسلامة العقل أي سلامة منهجية التفكير.

وركيزتين مجتمعيتين: القدوة والقيادة الصالحة، وكيف تتعامل مع الأمة، والإرادة والعزيمة.

دور كليات الشريعة في أركان الإصلاح:

لا شك أنه يقع على عاتق كليات الشريعة تخريج هذا الإنسان الذي تحقق بالإيمان قلبياً، واستقامت مناهج التفكير عنده، وزكت نفسه، وهي معنية بإيجاد القدوة الصالحة ، ومن واجباتها استنهاض الإرادة والهمة والأمة، كيف يكون ذلك؟

١- الإرادة والعزيمة

أما الإرادة فإذا لم تتولد لدى فرد ما، أوأمة ما قناعاتٌ تامة نحو قيمة وسلوك ما، وإذا لم تكن الإرادة حرة ومستقلة، فكيف يمكن أن يحدث إصلاح أو تغيير، بل كيف يمكن أن يكون مجرد تفكير في ذلك كله.

---

(٢) حديث صحيح، أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم ٨٩٧ وأبو يعلى في مسنده رقم ٤٣٨٦ والبيهقي في شعب الإيمان رقم ٥٣١٢ .

(٣)ينظر في تفصيل ذلك كتابي صناعة الشباب، دار السلام ، القاهرة.

ولقد رأينا نصوص القرآن والسنة تتجه بالمسلم نحو تحرير إرادته وتقويمها في آن واحد: « لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسنَ الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا »(٤).

وكم حذرت الآياتُ من اتباع الآخرين على باطلهم، وأكدتْ على مسؤولية الإنسان عن نفسه وأهله ورعيته، تربية لحقيقة الإرادة الحرة المستقيمة.

﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وقال الذين اتَّبعوا: لو أن لنا كرةً فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

إذا لم توجد الإرادة الحرة المستقيمة الصالحة الصادقة المبنية على القناعات الراسخة؛ لا يوجد عمل ولا بناء ولا سلوك.

فلا بد أن يتخذ كل فرد فينا قراراً حاسماً جازماً صادراً عن إرادة راسخة عميقة قوية: إني أريد الإصلاح، أريد التغيير، أريد أن أتحقق بمنظومة قيم ديننا وأخلاقنا، عبودية وطاعة لله.

ولذا كان شعار الأنبياء على لسان شعيب: ﴿ إن أريد إلا الإصلاحَ ما استطعتُ، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [هود: ٨٨]، ولاحظ كيف جمع بين الإرادة والإصلاح، وكان قوله تعالى: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

تحقيقُ المجاهدة لنفسك بوجودُ التوجه القلبي الصادق نحو الحق والحقيقة، وتلك حقيقة الإرادة: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة: ١١٩].

ومن ثم عندما يكون لديك التوجه الصادق والعزيمة والهمة العالية يكون التوفيق لك من الله: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم ﴾ [محمد: ١٧].

الإرادة الحرة الصادقة المستقيمة أساسُ العمل والانطلاق والتصحيح، وتلك التي قد يعبر عنها في بعض النصوص بالنية أو القصد، ولذا كم كانت توجيهاتُ رسول الله ﷺ للمسلم أن يستحضر المسلمُ النيةَ في كل عمل، وأن تكون هذه النية سليمةً خالصة لله، لينبني عليها بعد ذلك كل عمل سليم صحيح: « إنما الأعمال بالنيات »(٥)، واقرأ قوله تعالى: ﴿ طاعةٌ وقول معروف،

(٤) أخرجه الترمذي ٢٠٠٧ وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وروى نحوه الطبراني في الكبير رقم ٨٧٦٥ ، وضعفه آخرون.

(٥) أخرجه البخاري(١)، ومسلم.

فـإذا عـزم الأمـر فلـو صـدقوا الله لكـان خـيراً لهـم، فهـل عسـيتم إن تـوليتم أن تفسـدوا في الأرض وتقطعو أرحامكم ﴾ [محمد: ٢١-٢٢].

مـاذا نجـد ؟ نجـد أنـه إن أصبح لكـم ولايـة ولم تكونـوا ممـن تحقـق بالطاعـة والقـول المعـروف والعزيمـة الصادقة والإرادة المستقيمة، إذا لم يكن كذلك فإن الفساد وتقطيع الأرحام هي النتيجة المباشرة.

فكمـا بينـت الآيـة أنـه لـو صـدقوا مـع الله عنـدما يجـدُّ الأمـر ويأتي وقـت التنفيـذ (عـزم الأمـر) لكـان خـيراَ، وأن عـدم الصـدق يـؤدي إلى الفسـاد والإفسـاد، فكـذا أشـارت ضـمناً إلى العزيمـة والإرادة الصادقة، مع الإخلاص لله، في ظل الطاعة والقول المعروف لحفظ البلاد والعباد من أي فساد.

ودعـوة أخـرى إلى الإرادة والعزيمـة في سـياق الحـديث عـن الموقـف لحظـة مـا يجـدُّ الأمـر للسـير علـى طريـق البنـاء والعمـل الصـحيح والتصـحيح في قولـه تعـالى: ﴿ فبمـا رحمـة مـن الله لِنْـتَ لهـم ولـو كنـت فظـاً غلـيظ القلـب لانفضـوا مـن حولـك، فـاعف عـنهم واسـتغفر لهـم وشـاورهم في الأمـر، فـإذا عزمـت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن المتأمـل في أسـرار هـذه الآيـة يجـدها تقـرر أسـباب الإصـلاح والتغيـير، ومـن ثم طريـق النصـر والعـزة للأمة.

ألا تـرى أنـه قـد جـاء بعـدها مباشـرة قولـه تعـالى: ﴿ إن ينصـركم الله فـلا غالـب لكـم ﴾ [آل عمـران: ١٦٠]، فإذا تأملت الآية وجدتها تتحدث عن:

. أخلاق القيادة.

. ومنهج التعامل مع الأمة.

. ومنهج إدارة الحكم القائم على الشورى.

. وصلاح القلوب المعبر عنها بالتوكل على الله.

وفي هـذا الصـدد أشـارت إلى الموقـف وقـت التنفيـذ بالقـول: (فـإذا عزمـت) لتـدل علـى العزيمـة والإرادة في التنفيذ.

ومـا أشـرتُ إليـه في أسـاس الإصـلاح والتغيـير هـو ذات مـا اشـتملت عليـه الآيـة الكريمـة في قولـه تعـالى: ﴿ إن أريـد إلا الإصـلاح مـا اسـتطعت، ومـا تـوفيقي إلا بالله، عليـه توكلـت وإليـه أنيـب ﴾ [هـود: ٨٨]، فكـان فيهـا الإشـارة إلى الإرادة والمـنهج مـن خـلال قولـه: ﴿ ومـا تـوفيقي إلا بالله ﴾ ، والإشارة إلى القلب السليم من خلال ذكر التوكل والإنابة، وهو في ذلك القدوة لغيره.

وقد رأينا أن قوله تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ يدل على ذلك كله.

٢- القدوة الصالحة:

ولئن مضى الحديث من قبل عن الإرادة والعزيمة الصادقة؛ فإن الركن الثاني في الإصلاح: القدوة الصالحة.

نعم لا يتصور إصلاحٌ وتغيير وتأثير حقيقي عميق نحو الأفضل والأكمل في حياة الأفراد والأمم من غير تهيؤِ القدوة الصالحة الكاملة.

ولذا عندما ألاحظ انحرافاً لدى شبابنا أو سوءَ خلق أو تقصيراً، أجدُ أن غيابَ القدوة الصالحة سبب في ذلك.

وعندما أسأل كيف يمكن لشاب أن يغير حياته نحو الأفضل، وكيف ينتصر على نفسه ويهذب خلقه، فأجد أنه إذا لم تتهيأْ قدوة صالحة مؤثرة في حياة الفرد، ومن ثم في الأمة، سيبقى خلل ما.

قد يَصلحُ حال بعضنا بمؤثرات خاصة كالاجتهاد في العبادة والذكر وحسن المطالعة والتلاوةِ لكتاب الله، ولكن كيف يمكن لإنسان أن يتوجه نحو الاجتهاد في هذه القضايا، كيف ترسخُ المعاني في قلبه، كيف يصبح السلوك القويم ملكةً تامةً عنده، كيف يرتقي في مدارج السالكين، متى يفكر أن يخرج من وهدة الانحراف والضياع.

نجد أن من أعظم المؤثرات في حياة الإنسان حقاً: القدوة الصالحة.

العامل في عمله، والمدرس في مدرسته، عندما يجد كل واحد منهم أن رئيسه في العمل يحرص على الإتقان ودقة النظام والعدل والإنصاف وسلامة التعامل وإنسانيته، كل ذلك يشكل له دافعاً عميقاً وقوياً ليكون كذلك.

ولو قدر له أن يجد رئيساً في العمل خلاف ذلك، فلربما كان ذلك من أسباب تقاعسه أو ضعف همته أو تقصيره.

وكذا الولد في منزله والفتاة في بيتها، عندما يجدان أبوين جادين صادقين طاهرين، يقتدي الأبناء بذلك ويتأثرون ويستجيبون.

ثم إن الكلمة الصادقة والخلق القويم والقيمَ النبيلة لا بد لها من نفس إنسانية سامية تحملها وتتحقق بها، وتجسدها في واقع الإنسانية، لتستطيع الإنسانية إدراك حقيقة تلك القيم وسموها ونبلها، ولكي تنتقل تلك القيم من عالم المثال والفكرة المجردة إلى عالم الواقع والحقيقة المجسدة.

ولعل هذا كلَّه من أسرار إرسال الرسل والأنبياء في التاريخ إلى أن خُتِموا بإمامهم الأعظم محمد ﷺ، ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً

﴾ [الأحزاب: ٢١]، ويخاطب ربُّنا محمداً ﷺ قائلاً: ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفي هذا الصدد يأتي حديث رسول الله ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري ﷺ: مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحْذِيَك، وإما أن تبتاعَ منه، وإما أن تجدَ منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يُحرقَ ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة »(٦).

ولذا لفت العلماء النظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ [الكهف: ١٧]، فقالوا: إن من معاني ذلك أن الولي المرشد، وهو من تحقق بالعلم وكمال الإيمان والتقوى وأيده الله بالتوفيق، هو الأقوى تأثيراً والأقدر على هداية الناس بإذن الله، إلا فيمن اختار طريق الضلالة والغواية، فلا يؤثر فيه مؤثرٌ كائناً من كان من الخلق حتى الولي المرشد.

فلئن جاءت الآية في الأصل لتقرر هذا الأمر، فإن المفهوم من سياقها هو بيانُ أثر الولي المرشد في الهداية والدلالة إلى الخير والإصلاح.

تعاني أمتنا وشبابنا من انحرافات كثيرة، ونشكو من تقصير، ونتطلع إلى تطوير في الإدارة والنظم والأعمال والصناعات ورقيٍّ في أساليب الحياة وإدارتها، ونرجو تقويم سلوك أبناء أمتنا، إننا إذا وجدنا القدوة الصالحة المؤثرة الحية الملتزمة الصادقة في مجتمعنا، وكان لهذه القدوة دورُها وتأثيرها وعملها، وأتيح لها أن تأخذ مكانها ومكانتها، فإننا نكون قد قطعنا شوطاً كبيراً جداً نحو تحقيق ما نريد.

ومن باب أولى أنه عندما يستشعر فينا كل ذي مسؤولية في مسؤوليته أنه يجب أن يكون قدوة للآخرين كاملة في عمله؛ يحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة، ويحرص كلَّ الحرص على كمال الصدق والأمانة في عمله والقيام بواجباته من غير أن ينتظر ثناءً أو لفت نظر أو أجراً دنيوياً خاصاً، بل يتجرد في ذلك كله لله، عندها سنكون قطعاً على خير عظيم، تحقيقاً لمعنى قوله تعالى على لسان تلك الفتاة لأبيها في حق موسى: ﴿ يا أبت استأجره، إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص: ٢٦].

لقد أدرك أعداؤنا خطورة هذا الأمر، فنجد أن من أهداف الإعلام الغربي صناعة نماذج من الشخصيات المتأثرة بالثقافة الغربية في الفكر والسلوك، ومن ثم تسويقها في عالمنا العربي والإسلامي، لتُحدِثَ أثرهَا السلبي.

في المقابل نجد أن المنهج القرآني الدائم يرشدنا إلى القدوات العظام التي يصح أن تتخذ قدوة، بل يجب أن تتخذ قدوة، فيقدمُ للشباب أنموذجَ يوسف ﷺ الشاب ليكون قدوة في العفة والأمانة

(٦) أخرجه البخاري رقم ٥٢١٤ ومسلم رقم ٢٦٢٨ .

وحسن المسؤولية وصدق الكلمة، ويقدم أنموذجَ الشاب إسماعيلَ ﷺ ، العابدِ الصادقِ المطيع، وأنموذج الفتية في سورة الكهف، وهكذا قل في كل الأنبياء الذين تحدث عنهم القرآن الكريم.

كما يقدم للنساء النماذج الأرقى والأكمل التي تصلح أن تتخذ قدوة، بل ويجب أن تكون كذلك.

لكل هذا نقول: بداية الإصلاح والتغيير والارتقاء والتقويم: القدوة.

فتلك رسالتنا إلى الشباب اليوم.

٣- المنهج السليم والثقافة الصحيحة.

وأما الركن الثالث في الإصلاح والتغيير فهو: المنهج السليم والثقافة الصحيحة.

وعندما نتحدث عن المنهج السليم فلا بد من الإشارة إلى أن هذا الأمر ذو شقين: الأول: المادة والمضمون، الثاني: كيفية الالتزام بتلك المادة والمضمون.

من أين نستقي مناهجنا ومبادئنا وقيمنا، ما مضمونها، إلى ماذا تدعو، ماذا تريد ؟

الجواب البدهي عند كل مسلم: إنه كتاب الله: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء: ٩]، فلا بد أن نعيد صياغةَ شخصيتنا وفق كتاب الله سبحانه.

وبداية الطريق زرع الإيمان في القلوب، وللالتزام بذلك كله لا بد من التربية المستمرة الدائمة عليه، فالذي يجعلنا نتحقق بهذا المنهج أو ذاك هو منهج التربية ذاتها.

كيف نربي أنفسنا على هذا المنهج وتلك الشِّرْعَةِ، قال تعالى: ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨]، فالشرعة: هي ذلك المحتوى الفكري والعقدي والتشريعي والأخلاقي الذي نُطالَبُ به، والمنهاج: تلك الطريقة السليمة في التربية التي تحققنا بتلك الشرعة.

وهذا ما أريد أن ألفت النظر إليه، وكتاب الله اشتمل على الأمرين معاً: المحتوى والمضمون الذي يجب أن تتحقق به، والطريقة والسبيل للتحقق بذلك، وبهذا الاعتبار يصح أن يُطلق عليه بمجموعه المنهج.

فنحن أمام أمرين:

الأول: قرار إيماني بأن لا أحيد عن كتاب الله منهجاً وشرعة ومصدراً في أحكامي وتصوراتي وقيمي وأخلاقي وأعمالي.

الثاني: كيف نتحقق بهذا المنهج ؟ إنها التربية، ولكن كيف ؟

في التربية ومناهجها:

سميت التربية تربية لأنها تنشأُ حالاً فحالاً، وشيئاً فشيئاً، كمن يربي شيئاً فينمو عنده ويربو، وكذلك التربية من خلالها نُنْشِؤ خلقاً ما وقيمة ما وسلوكاً ما شيئاً فشيئاً.

فإن كانت أسس تلك التربية ومقوماتها وطرائقها وأهدافها سليمةً؛ أنشأتْ سلوكاً وقيماً وأخلاقاً سليمة، وكذا العكس.

وعلى هذا فأنا عندما أقول: نريد أن نتحقق بأخلاق القرآن، فمن الأخلاق التي دعانا القرآن إليها ـ مثلاً ـ الحِلْمُ، لا يأتي الحلم دفعة واحدة بمجرد أن تقول للإنسان كن حليماً، بل لا بد أن تربيَه وتنشئه على ذلك، وتحققه بهذا الأمر شيئاً فشيئاً، بالقدوة تارة، وبالأمر تارة أخرى، وبضرب النماذج الحية في ذلك، وبتكرار الأمر والإشارة والتذكير، والتدريب، وبإيجاد البيئة المناسبة، ومن خلال المواقف المتراكمة، ولذا سميتْ تربية.

وكذا قل في خلق آخر، مثلاً: النظام والترتيب والدقة في المواعيد، قيمٌ دعا إليها القرآن.

لو قلتُ لك كن منظماً دقيقاً ملتزماً بالقانون والتعليمات هكذا، لا تَحصُلُ الاستجابةُ، لكن لا بد أن أربيَ الفردَ والمجتمعَ على ذلك تربية:

ـ أقدم عشرات النماذج، بل مئات النماذج للأمة في ذلك.

ـ أقدم مئات البرامج الإعلامية الداعية إلى ذلك، بأساليب متعددة متغيرة.

ـ تكتب عشرات المقالات، بل مئات.

ـ يتحدث الخطباء والوعاظ ويكررون ويذكرون.

ـ أسعى لتهيئة البيئات المناسبة لذلك.

ـ يأخذ المسؤولون دورهم في هذا الأمر، فيقدمون النماذج الأرقى.

ـ تُعدُّ البرامج التدريسية العملية والنظرية لهذا الأمر، فتربى الشعوب على ذلك شيئاً فشيئاً.

ـ من خلال المواقف والبرامج والإعلام والكتابة والتذكير المستمر والتشريعات المناسبة والقوانين الصارمة.

وعندما يربط كل ذلك بالإيمان والامتثال لأمر الله والفوز بالآخرة، لا بد أن ننال ثمار ذلك.

ومن هنا نقول: إن من أساسيات الإصلاح المنهجَ، والتربيةَ على ذلك المنهج والتحقق به.

وإذا ربطنا ذلك بما قررناه من قبل بالقدوة الحسنة نجد صدقَ ذلك كله، فعندما يجد كل فرد أن القدوة والمسؤول متحقق بما يدعوه إليه ويطلبه منه؛ يجد دافعاً ويجد واقعاً.

أعلـمُ أن مثـل هـذه القضـايا لا تأتي طَفْـرةً، بـل تحتـاج إلى زمـن طويـل، لـذا نجـد أن الصـحابة أمضَـوا ثلاثـة عشـر عامـاً في مكـة فقـط، ليتحققـوا بحقيقـة المـنهج، مـنهج التوحيـد والعبوديـة والصـدق والأمانـة، فلمـا كـان مـنهم هـذا التحقـق انطلقـوا مهـاجرين، ثم فـاتحين، ومـا توقفـت عمليـةُ التربيـة علـى المنهج لحظة واحدة.

٤- صلاح القلب:

ثمـة صـراعٌ خطـير داخـلَ كـل إنسـان، ميدانُـه القلـبُ، وأطرافـه الـنفس والشـيطان مـن جهـة، وتعـاليم الأنبياء ومنطق العقل القويم من جهة أخرى.

ولا يتوقـف هـذا الصـراع لحظـة، فكـان لا بـد لعمليـة التربيـة ومـن ثم التزكيـة أن تسـتمر، لـذا فـإن مـن البـدهي أن نقـولَ: إن كـل مـا تحـدثنا عنـه مـن أسـباب الصـلاح والتقـويم للأمـة وللأفـراد وللشـباب والفتيـات مـن إرادة وقـدوة ومـنهج منـوطٌ بأمـر أعظـم إليـه مرجـع كـل شـيء، ألا وهـو صـلاح القلـب، كما قال ﷺ: « إن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلحَ الجسدُ كله »(٧).

ولذا فإن الركن الرابع في عملية الإصلاح والتغيير هو صلاح القلب.

وهذا يحتاج إلى حديث مستفيض، سأشير إلى بعضه فيما يأتي.

---

(٧) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩ .

المطلب الثاني: دور كليات الشريعة في بناء الإيمان وتحقيق التزكية وصلاح القلب

إننا إذا تأملنا أركان الإيمان، وهي الواجبات القلبية الكبرى، ثم أركان الإسلام، وهي العبادات العملية الكبرى؛ فإن الغاية الأسمى من ذلك هو أن يوجد هذا الأساس العظيم الذي يقوم عليه البنيان العظيم، ومنها المناهج: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجزائية والعلمية والإعلامية والتربوية؛ إذِ البناء العظيم لا بد له من أساس عظيم، وإلا كان عرضة للعوادي والمؤثرات السلبية.

ثم الغاية التي هي فوق ذلك كله تحقيق الإنسان بالإحسان؛ الإحسان في علاقته مع الله ومع الإنسان ومع النفس ومع جميع المخلوقات، فتستقيم علاقة هذا الإنسان مع الآخر على أكمل وجه وأتمه، وهل هذا إلا هو الخلق العظيم الذي وصف به رسولنا عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وقد عبّر النبي ﷺ عن هذا المعنى بقوله: « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »، فجاء ذكر الإحسان في حديث رسول الله ﷺ بعد ذكر أركان الإيمان والإسلام، وكأن الأركان تلك هي التي تقودك إلى الإحسان، وهي الثمرة المرجوة من ذلك كله.

فما حقيقة الإحسان:

حقيقة الإحسان عبودية خالصة صادقة كاملة لله، فلا يتأتى منك أيها الإنسان إلا ما يرضي الله في جميع اعتقاداتك وتصوُّراتك وعلاقاتك وسلوكياتك ظاهراً وباطناً، وتذر وتترك كل ما نهى الله عنه باطناً وظاهراً ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وإنما يحملك على ذلك كله أن تستشعر قلبياً أن الله يطلع على سرك وجهرك، ظاهرك وباطنك ...

وهنا أنت بين مقامين:

١- مقام تستشعر فيه كأنك ترى الله قلبياً.

٢- مقام استشعارك أن الله يراك.

ولتقريب ذلك نقول: لو أن إنساناً في قاعة امتحان، وكان المراقب أمامه؛ فإن الطالب يراه مباشرة، فيحمله ذلك على كامل الانضباط، لكن المراقب قد يقف خلف الطالب، فلا يراه مباشرة، لكنه يعلم بوجوده، ويحس به، فينضبط أيضاً.

إن هذا الشعور القلبي في تعاملك مع الله هو الذي يحملك على الاستقامة على أمر الله، وقد عبّر النبي ﷺ عن ذلك كله بقوله: « الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »، فالثمرة الكبرى للتحقق بالإسلام كله هو هذا الإحسان، الذي هو في حقيقته كمال

الأخـلاق وكمـال العبوديـة لله، لأن النـبي ﷺ قـال: الإحسـان: أن تعبـد الله ... ممـا يـدل أن حقيقـة الإحسـان هـي العبوديـة لله، كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَمَـا خَلَقْـتُ الجِـنَّ وَالإِنـسَ إِلاَّ لِيَعْبُـدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

تزكية النفس وعلاقتها بالقلب:

إن الإنسـانَ مكـونٌ مـن جسـد ـ وهـو آلـة منفِّـذَة، ومـن عقـل وقلـب وروح ونفـس، والمعـول عليـه في الصـلاح ابتـداءً القلـبُ، والقلـب يتلقـى أوامـره مـن جهـة العقـل، الـذي هـو محـلُّ إدراك الخطـاب والتكليـف، وبـه يكـون الإنسـان مكلفـاً شـرعاً، وبـه يـدرك خطـاب الله لعبـاده، وبـه يعقـل رسـالة الرسل، فلا يأمرُ العقلُ إلا بخير وحق.

لكـن القلـب لا يتلقـى مـن جهـة العقـل الحامـل لنـداء الله والرسـل فقـط، بـل يتلقـى مـن الـنفس أيضـاً، التي إن لم تَتَزَكَّ فإنها تأمر بالشهوات، وهي جسر الشيطان إلى القلب.

فيقـع القلـب في صـراع بـين نـداء العقـل ومـا يحملـه مـن خطـاب الله والرسـل الـذي يأمـر بالخـير، وبـين أوامـر الـنفس الـتي لم تتـزكّ، ومعهـا وسوسـة الشـيطان الـتي تأمـر بالشـر، فيقـع الصـراع، وهنـا إذا كـان القلـبُ منـوَّراً صـالحاً اسـتجاب لنـداء الخـير، وهجـر الشـر كمـا قـال ﷺ: « إن في الجسـد مضـغةً، إذا صلحت صلحَ الجسد كله، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب »[٨].

وإذا لم يكـن هـذا القلـب منّـوراً اسـتجاب للشـر، والاسـتجابة للشـر إنمـا تكـون بسـبب فسـادٍ وخلـل في القلـبِ، وعنـدما تكـون الـنفسُ غـيرَ مزكـاةٍ، فهـي أمّـارةٌ بالسـوء، لـذا فـالمطلوبُ إصـلاحُ القلـب، حـتى إذا أُمـر بالشـر لا يسـتجيبُ، والمطلـوب تزكيـةُ الـنفس حـتى تنسـجمَ مـع العقـل، فـلا تأمـر القلـب إلا بخير، ولا تسمح للشيطان أن يمر من خلالها إلى القلب.

لـذا نـرى كثـرةَ الآيات الـتي تحـدثنا عـن إصـلاح القلـب وتزكيـة الـنفس، وبمقـدار مـا نمـلأ القلـبَ نـوراً فإنـه سـيوجه نـوره إلى الـنفس، فيزيـل ظلماتِهـا وشَّـرها، لينقلهـا إلى الـنفس المطمئنـة، ويصـبح القلـب نفسه مطمئناً.

عنـدها ينسـجم القلـبُ والـنفسُ مـع نـداء الشـرع ويـزول الصـراع، قـال تعـالى: ﴿ ألا بـذكر الله تطمـئن القلـوب ﴾ [الرعـد: ٢٨]، وقـال تعـالى: ﴿ يا أيتهـا الـنفس المطمئنـة ارجعـي إلى ربـك راضـية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

ومـن أجـل أن نحـرص أن نكـون مـن أصـحاب القلـوب المطمئنـة المؤمنـة المنـوَّرة ونحـذَر غـير ذلـك يبـين لنا رسول الله ﷺ القلوب وأنواعها، فقال:

---

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢، ومسلم رقم ١٥٩٩ .

« القلوب أربعةٌ؛ قلبٌ أجردُ فيه مثل السراج يزهرُ، وقلبٌ أغلفُ مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مصفحٌ، فأما القلب الأجْرَد فقلبُ المؤمن، سراجُه فيه نوره، وأما القلب الأغلفُ فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرفَ ثم أنكرَ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطَّيِّب، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحةِ يمدها القيح والدمُ، فأي المدتين غلبتْ على الأخرى غلبتْ عليه »(٩).

وهكذا نجد أن المؤمن قلبه منور مجرد من الشر متجرد لله، وهو القلب السليم، أما الكافر والمنافق فقلبهما أغلف أو منكوس، وهو القلب الميت، وبَقِيَت القلوبُ المريضة، وهي التي يشتد فيها المرض أو ينخفض بحسب إمداده بأسباب الإيمان والشفاء، قال تعالى: ﴿ وننَزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ولقد حدثنا القرآن عن القلب السليم، فقال تعالى: ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنونَ إلا من أتى اللهَ بقلب سليم ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وحدثنا عن القلوب المريضة، فقال تعالى: ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [البقرة: ١٠]، وحدثنا القرآن عن القلوب التي لا تستجيب، فقال تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة: ٧]، وقال: ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد: ٢٤]، فهذه أنواع القلوب، فكيف نعالج القلبَ المريضَ ؟ ونصلُ به إلى القلب السليم الصحيح المنوَّر ؟

إن سورة النور حدثتنا عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيه اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلب والأبصار ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وسائل تزكية النفس:

رأينا كثرةَ الآيات التي حدثتنا عن إصلاح القلب وتزكية النفس، و أن السر في ذلك كله هو بمقدار ما نملأ القلبَ نوراً وعندها يوجه القلب نوره إلى النفس، فيزيل ظلماتِها وشَّرها، لينقلها إلى النفس المطمئنة، ويصبح القلب نفسه مطمئناً.

وهكذا نجد أن المؤمن قلبه منور مجرد من الشر متجرد لله، بحسب إمداده بأسباب الإيمان والشفاء، قال تعالى: ﴿ وننَزِّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ [الإسراء: ٨٢].

ورأينا أن سورة النور حدثتنا عن منهج التزكية ووسائلها بعد ذكر النور الذي يجب أن نبحث عنه في قوله تعالى: ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيه اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلب والأبصار ﴾ [النور: ٣٦-٣٧].إضافة إلى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم

(٩) أخرجه أحمد رقم ١١١٤٥، ونحوه عند ابن أبي شيبة رقم ٣٧٣٩٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١، ص ٦٣: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير عن إسناد أحمد: إسناد جيد حسن، والحديث قد صح موقوفاً عن حذيفة ﷺ، وهو موافق لما ورد في صدر سورة البقرة، ومثل هذا الحديث إنما يلتقط من مشكاة النبوة.

بِـذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِـذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَـئِنُّ الْقُلُـوبُ ﴾ [الرعـد: ٢٨]، وقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْـنَاهُم بِخَالِصَـةٍ ذِكْـرَى الـدَّارِ ﴾ [ص: ٤٦]، فهـذا طريـق الإيمـان والشـفاء مـن الأمـراض القلبيـة كلهـا وهـذا طريـق التزكيـة: بيئـة صـالحة صـحيحة متمثلـة بالمسـجد ومـا في معنـاه، قـائم علـى الإخـلاص ومـنهج العلـم والأذكـار والصـلوات والعبـادات والتـذكر للآخـرة والصـدقاتٌ، مـع ضـرورة التـذكير هنـا علـى أهميـة المربي المرشد ، كما قال تعالى:﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً ﴾ [الكهف: ١٧].

ويؤكـد هـذا حـديث حنظلـة الْأُسَـيِّدِيِّ، وَكَـانَ مِـنْ كُتَّـابِ رَسُـولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ – قَـالَ: لَقِيَـنِي أَبُـو بَكْـرٍ، فَقَـالَ: كَيْـفَ أَنْـتَ؟ يَا حَنْظَلَـةُ قَـالَ: قُلْـتُ: نَافَـقَ حَنْظَلَـةُ، قَـالَ: سُـبْحَانَ اللهِ مَـا تَقُـولُ؟ قَـالَ: قُلْـتُ: نَكُـونُ عِنْـدَ رَسُـولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، يُـذَكِّرُنَا بِالنَّـارِ وَالْجَنَّـةِ، حَـتَّى كَـأَنَّا رَأْيُ عَـيْنٍ، فَـإِذَا خَرَجْنَـا مِـنْ عِنْـدِ رَسُـولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، عَافَسْـنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّـيْعَاتِ، فَنَسِـينَا كَثِـيرًا، قَـالَ أَبُـو بَكْـرٍ: فَـوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَـى مِثْـلَ هَـذَا، فَانْطَلَقْـتُ أَنَا وَأَبُـو بَكْـرٍ، حَـتَّى دَخَلْنَـا عَلَـى رَسُـولِ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، قُلْـتُ: نَافَـقَ حَنْظَلَـةُ، يَا رَسُـولَ اللهِ فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ «وَمَـا ذَاكَ؟» قُلْـتُ: يَا رَسُـولَ اللهِ نَكُـونُ عِنْـدَكَ، تُـذَكِّرُنَا بِالنَّـارِ وَالْجَنَّـةِ، حَـتَّى كَـأَنَّا رَأْيُ عَـيْنٍ، فَـإِذَا خَرَجْنَـا مِـنْ عِنْـدِكَ، عَافَسْـنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّـيْعَاتِ، نَسِـينَا كَثِـيرًا فَقَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: «وَالَّـذِي نَفْسِـي بِيَـدِهِ إِنْ لَـوْ تَـدُومُونَ عَلَـى مَـا تَكُونُـونَ عِنْـدِي، وَفِي الـذِّكْرِ، لَصَـافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَـةُ عَلَـى فُرُشِـكُمْ وَفِي طُـرُقِكُمْ، وَلَكِـنْ يَا حَنْظَلَـةُ سَـاعَةً وَسَـاعَةً» ثَـلَاثَ مَرَّاتٍ(١٠).

فـإن هـذا الحـديث يبـين أثـر التربيـة النبويـة وأثـر القـرب مـن رسـول اللهﷺ، وأثـر الـوعظ وتـذكر الآخـرة، وأثـر الـذكر الكثـير، ولعـلّ مـن أعظـم الـذكر؛كثرة الصـلاة علـى رسـيول اللهﷺ لقولـه تعـالى: (هـو الـذي يصـلي علـيكم وملائكتـه ليخـرجكم مـن الظلمـات إلى النـور) ومـن أسـباب صـلاة الله علينـا الصلاة على رسول اللهﷺ والصبر.

كمـا أن للتفكـر والتـدبر أثـره الكبـير في التزكيـة: (الـذين يـذكرونالله قيامـاً وقوعـوداً ويتفكـرون في خلـق السموات والارض)(١١).

وإذا تنـوَّر القلـبُ وجَّـهَ النـورَ إلى الـنفس، فتزكُـو وتتطهـرُ، فـلا تأمـر القلـب إلا بخـير، فيحصـل الاطمئنـان، فتكـون النتيجـة: ﴿ قـد أفلـح مـن زكاهـا ﴾ [الشـمس: ٩]، وعنـدها نكـون سـلكنا طريـق التربيـة الروحيـة، أي سـيطرة الـروح بسـموها ورُقِيِّهـا وعُلُـوِّ مصـدرها، علـى ماديـة الجسـد وترابيتـه وشهوانيته، وهذا طريق السعادة حقاً.

---

(١٠) أخرجه مسلم ٢٧٥٠

(١١) يمكن الإفادة في موضوع التزكية ووسائلها من كتاب: المستخلص في تزكية الأنفس، لسعيد حوّى، دار السلام، ص٣-١٤٥.

ولأجل ذلك كله جاء الأنبياء ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

المعول عليه القلب:

يفهم مما سبق أن المعوَّل عليه في الإصلاح الكلي الشامل للإنسان هو هذا القلب، فإن صح وصلح؛ صح كل شيء، ومن ثم فإصلاح القلب هو الثمرة الكبرى للتحقق الكامل بهذا الدين.[١٢]

بهذه الرؤية الشاملة تنطلق كليات الشريعة للقيام بدورها الكبير المناط بها في إصلاح وتنوير القلوب

المطلب الثالث: دور كليات الشريعة في بناء منهجية التفكير الشرعي السليم:

إن المناهج التي تعتمدها كليات الشريعة كفيلة بتأسيس منهج التفكير السليم، وأهم مرتكزاته:

١- التفريق بين القطعي والظني. والقطعي هو: المتواتر، وهنا لابد من الإشارة إلى ضرورة معرفة شروط التواتر، ووجوب التثبت من أي نص قبل العمل به، من هنا كانت المعارف على مراتب:

-العلم ويساوي اليقين، (القطعي الجازم المطابق للواقع) (وطريقه المحكم، المتواتر) (فوجب معرفة الطريق إلى ذلك).

- الظن أو غلبة الظن وهو ما ترجح فيه الصواب ويجوز فيه الخطأ.

(فوجب معرفة متى يكون الحكم كذلك).

- الشك: ما تردد بين الطرفين..

- الوهم: ما لم يبن على شيء، وترجح فيه الرد.

وإذ لابد من قبول المتواتر القطعي، فإنه يجوز أن الاختلاف فيما هو ظني.

٢- التفريق بين المحكم والمتشابه، وكيف نتعامل مع كلٍ. قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ

---

(١٢) ينظر في أنواع القلوب ومقامات العبودية: كتابي مبادئ الإسلام، دار السلام، القاهرة.

وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران:٧].

وقفة مع الآية:

تمهيد: في بيان معنى المتشابه في القرآن، وعلاقته بالمختلف؟

يأتي المحكم في القرآن ويراد به: ما كان واضحاً في نفسه، ولا يحتاج إلى بيان من خارجه ولا يحتمل أكثر من معنى، ولا يحتمل تأويلاً ولا تخصيصاً ولا نسخاً.

ويأتي المتشابه في القرآن ويراد به:ما احتمل أكثر من معنى أو احتاج إلى بيان من خارج النص.

أو: ما استأثر الله بعلمه.

وبناءً على تفسير المتشابه يكون التعامل معه، فإن فُسّر بأنه ما استأثر الله بعلمه من علوم الغيب؛ فلا بد من الوقوف عند قوله تعالى {وما يعلم تأويله إلا الله..}.

وإن فُسّر بالمعنى الآخر فيرد المتشابه إلى المحكم، ويفهمه الراسخون في العلم.

فالمؤمن يجعل المحكم هو الأصل، ويرد المتشابه إليه؛ فيسلم، أما زائغ القلب فيجعل المتشابه هو الأصل ويريد أن يفهم المحكم على ضوئه؛ فيضل، لذا عقبت الآية ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾.

ويترتب على كل ما مضى أنه لا يجوز الاختلاف في المحكم القطعي، بينما يجوز الاختلاف فيما هو ظني الثبوت أو ظني الدلالة.

٣- العناية بالكليات الجامعة، وعدم الانشغال بالجزئيات المختلف فيها، وعدم إعطائها فوق حجمها.(قضية الصلاة نموذجاً)

٤- معرفة الحكم العقلي والشرعي والعادي، والفرق بينها، وكيف نصل إلى كلٍ منها، وما هي أحكامها.

٥- الموازنة بين إعمال العقل، والتزام النص والوحي، فالوحي هو الأصل، لكن لا يمكن إغفال دور الغقل في الفهم، وإثبات التص، ونقده سنداً ومتناً ما لم يكن متواتراً. كما لابد من إعمال العقل فيما هو عقلي.

٦- معرفة العلوم الحاكمة الضابطة لكل علمٍ، وما هي مناهجها، والالتزام بها، فالحديث يضبطه علوم الحديث، والفقه يضبطه علم أصول الفقه، وهكذا ... .

٧- معرفة علم الأصول والمقاصد والمآلات، والأولويات، والموازنات والمصالح.

٨- كون الخطاب الشرعي قائم على اللغة العربية؛ فلا بدَّ من التزام قواعدها، والتعمق في علوم اللغة العربية.

٩- احترام حق الاختلاف وآدابه، وتعميق منهج البحث المنفتح على الآخر والمخالف، ورفض التكفير والتبديع والتضليل،.وإدارة الاختلاف القائم على: التحاكم إلى المرجعية العليا كتاباً وسنة، الاختلاف في الفروع، وأن يتصدى له الراسخون في العلم، والتحقق بالتقوى، وتحري الحق، والخضوع له إذا ظهر، وتحرير محل النزاع، والتثبت. وأن الحجة للدليل، ولا نتهم النوايا ولا نخوض في أعراض المسلمين، ولانفسد الود، ولا نلغي مقدار المتفق عليه وهو الأكثر.

١٠- ومعرفة الاختلاف المأذون به شرعاً، وهو: ما كان في الفروع، وكان من قبل أهل الاختصاص، وكان قائماً على الدليل، وأن يكون قصد الجميع طلب الحق.

١١- تأسيس الحوار وأخلاقياته القائم على الاستماع للآخر، وحُسن النية، والرد على الفكرة لا الشخص.

١٢- حفظ حق غير المسلم عند الاختلاف، وذلك من خلال: الحوار، وعدم الإكراه، وحفظ الحقوق والعدل والبر.

١٣- التركيز على المفاهيم الخطيرة المعاصرة، من مثل مفهوم الجهاد، والأمر بالمعروف، ووطاعة ولي الأمر، ووضع الضوابط لها.

١٤- رفض مبدأ التكفير، وعليه من أهم الواجبات العلمية التركيز على الضوابط الشرعية الدقيقة في هذا الشأن.

١٥- التزام ضوابط التعامل مع الابتداع التي قررها العلماء

ضوابط في التعامل مع البدعة:

١- ليس كل محدث بالضرورة بدعة، بل ما كان محدثاً ولا يندرج تحت أصل شرعي، إذ لم تصح فقرة: (وكل محدثة بدعة).

٢- إذا ورد أمر ما في حديث ضعيف أو اختلف في صحتها يُخرج العمل من البدعة إلى الاجتهاد.

٣- إذا كان العمل (محل الاتهام بالبدعة) مما أقره مجتهد متأهل وفق دليل لديه فلا يُعدُّ بدعة، وإنما هو اجتهاد يحتمل الخطأ والصواب، وهو مأجور في كل حال.

٤- الذي ترجح لديه أن أمراً ما بدعة فهذا مُلزم به في حق نفسه، ولا يُلزم غيره.

٥- نُفرِق بين البدعة ومن قام بها، فنقول: هذا عمل بدعة. ولا نصف العامل بالمبتدع، لأنه هو يقوم بها عن دليل لديه.

٦- لا نكفّر إلا من أنكر قطعياً محكماً (وهو المتواتر الذي لا يحتمل تأويلاً ولا نسخاً ولا تخصيصاً)، أو عمل عملاً مخلاً بأصل من أصول الاعتقاد؛ لا يحتمل تأويلاً؛ كسجود لصنم؛ ولابد من محاكمة، وإقامة حجة لإصدار حكم. وإلا فلا نكفر المعين.

٧- لا يكون أمر بمعروف ونهي عن منكر في المختلف فيه.

بهذه الضوابط والقواعد تبني كليات الشريعة منهجية التفكير السليم

الخاتمة

بهذه الرؤية الشاملة تنطلق كليات الشريعة؛ لنجني ثمرات لاتنتهي:

وإذا تحققنا بصلاح الفلب وحسن الفهم ترتب على ذلك

- أنه يحققنا بالتوحيد لله والهداية.
- أنه يحقق الإنسان بحقيقة الإنسانية ووحدتها ويحرره من العبودية لغير الله، ويحرر العقل من الخرافة والشعوذة والأساطير والتبعية.
- أنه يحقق للإنسان السعادة والسكينة والطمأنينة، ويجيب عن كل أسئلة الإنسانية.
- أنه يحقق مجتمع الفضيلة والقيم والتعاون والتكافل والعدل.
- فضلاً عن التشريعات العظيمة التي أكرم الله بها الإنسانية في كل ميدان.

إن في المجتمع الذي رباه رسول الله ﷺ على عينه- مجتمع الصحابة-الأنموذج الارقى الذي يسعى الإسلام إليه، فكان الصحابة ثمرة القرآن العظيم، وثمرة التربية النبوية؛ ثمرة الإسلام كله، وهم

الـذين أثـنى الله علـيهم في آيات، فقـال سـبحانه: ﴿ وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ مِـنَ المهَـاجِرِينَ وَالأَنصَـارِ وَالَّـذِينَ اتَّبَعُـوهُم بِإِحْسَـانٍ رَّضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْهُ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي تَحْتَهَـا الأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]

وقـال تعـالى: ﴿ لَقَـدْ رَضِـيَ اللَّهُ عَـنِ المـؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَـكَ تَحْـتَ الشَّـجَرَةِ فَعَلِـمَ مَـا فِي قُلُـوبِهِمْ فَـأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح: ١٨].

تلكـم كانـت جولـة في مشـكلاتنا وأخطـر التحـديات، وبيـان أن أسـاس العـلاج ينطلـق مـن بنـاء الإنسـان، ومـن ثم تحـدثنا عـن منهجيـة الإصـلاح الشـاملة، لنركـز الحـديث عـن دور كليـات الشـريعة في صـلاح القلـب وتزكيـة الـنفس، وبنـاء منهجيـة التفكـير السـليم؛ فـأرجو أن أكون قد وفقت لإلقاء أضواء في ذلك.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.